رحلة نحو أقصى الغرب، في الولايات المتحدة الأمريكية. The Oregon Trail ، 3000 كلم على ظهر حصان، على مرتين قضي 48 ساعة متتالية دون أن يلتقي بمخلوق بشري، بل وقد التقى حتى بالسباع.

رحلة نحو الشمال، إلى إيرلندا، على ظهر مركب خاص برفقة أسرة لم يكن يعرفها قبل الإقلاع.

رحلات متكررة نحو الجنوب في جبال الأطلس المغربي برفقة حمار له.

ورحلات أكثر عدداً نحو أقصى الشرق، جاب خلالها اليابان من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه، على متن درّاجة هوائية.

هذا دون أن ننسى رحلته، مرة أخرى بصحبة حصان، بين الحدود السويسرية الإيطالية، يفتش من خلالها عما يسمّيه البشر بالحدود التي تقف حاجزاً بينهم.

في عصر الصواريخ والانترنت سمح حافظ لنفسه ما لا يستطيع إنسان آخر أن يسمح به. أعطاها الوقت كافياً للمعايشة والتأمل. فكان يعود وفي جعبته، كل مرّة، صيد فنّي تفخر به صالته كما تفخر به صالات أخرى. أمّا الأصحاب والزائرون، فكان اهتمامهم بالفنان أكثر منه بلوحاته، ليس أنه لم تكن اللوحات لتعبّر عنه، بل لأنه كان يسبقها ليعبّر بالكلمات عن ذاته، فيسحر سامعيه ويجذب قلوبهم. كان حافظ التحفة الكبرى بين تحفه، لا بل الخلاّق المتعالي على ما يخلق، يرفض أن يسكن لوحاته أو معها ولو إلى حين. فكان يصبح حيث لا يمكنها الإصباح ويمسي حيث لا يمكنها أن تمسي. فأعماله كانت له ظلاً في مسارته نحو الشمس.

لم ينس الفنان وطنه الأم. كان يرجع إليه دوماً، ولكنه لم يرجع منه أبداً – عند علمي – وفي جعبته عمل فني ما. رغم ذلك كان حنينه إليه دوماً. لا بل كان حلمه الأكبر أن يشيّد على ما ورثه من أجداده مؤسسة فنية تجمع بين الشرق والغرب. حالت الحرب اللبنانية دون تحقيق ذلك، كما ردعته القيم التي فرزتها الحرب – وعلى مضض – عن الاستمرار بهذا الحلم (طالما كسّرت الحروب أحلام الكثيرين وخصوصاً الحرب اللبنانية منها) دون أن تقتلع من قلب الفنان ومن أعماقه الحنين الدائم إلى وطنه. فكان كلما قام برحلة ما ورجع بأعمال فنية بين متاعه، كان الحنين يتزايد صراخاً متصاعداً من ألوان وأشكال هذه الأعمال عينها. فكأنه كان يجوب الأرض بحثاً عن هوية يشتد لا وعياً إليها. جاب الجهات الأربع بحثاً عنها. أولاً في اتجاه البلدان التي بقيمها تمثل صورة الأب، ثم باتجاه أقصى الشرق، من حيث تخرج

حافظ أم برتشنغر ؟

حافظ هو الإسم الذي أعطاه إياه والده، فوصمه بذلك شرقياً. أما أمه فأعطته الصفات الشرقية التي كانت تتحلى هي بها، من طيبة القلب والأخلاق إلى الانفتاح على الناس ومحبتهم، مروراً برحابة الصدر وسهولة المعاملة والعلاقات الاجتماعية.

توفيّ والده وهو طري العود، فتوجّهت الوالدة الشرقية بالأسرة نحو وطن الزوج، احتراماً لوصية هذا الأخير، من أجل صيانة مصير أولادهما، لما في هذه البلاد من قوانين تحمي حقوق الأرامل والأيتام من أعاصير الأيام.

تحت جناحي الوالدة وحماية بركتها ودون رادع سلطة أبوية، راح حافظ ينهل من الفنون ليشبع جوعاً هيكلياً في نفسه. فجاب العواصم الأوربية يتقن لغاتها ويستقي من علومها، وخصوصاً يعايش فنّانيها ويراقب أعمالهم آملاً أن يفجّر ما يجيش في نفسه من غنى فني.

استطاع حافظ بفضل عمله الدائب أن يكون من الفنانين القلائل الذين لهم صالة عرض خاصة ودائمة، يعرضون فيها ليس أعمالهم فقط، بل أعمال من يريدون من زملائهم.

تقع صالة "مرى" في البناية التي اشتراها حافظ في قلب مدينة فريبورغ القديمة، على ضفاف نهر السارين وبعد خمسة أمتار من جسر برن الخشبي المغطى بالقرميد البنّي. جسر يجمع بين المنطقة الفرنسية والمنطقة الألمانية. عشرون متراً بناها الإنسان جسراً من الأخشاب وغطّاه ليعبر بسهولة وأمن مادا يده إلى أخيه الإنسان على الضفة الثانية.

ومن نوافذ الصالة، تطلّ على نهر السارين، تجري مياهه صيفاً شتاءً، لا يمكنك اغتسال يديك فيها مرتين. وعلى شابهة المياه، يتأمل الجدار الصخري، الذي قضمته المياه على مدى العصور، يتأمل الطبيعة بفصولها والمدينة تطوي الأيام والسنين سنة بعد سنة وقرناً بعد قرن، تشيخ يوماً بعد يوم، رغم تبرّجها الدائم المتجدد. صدق أول الفلاسفة اليونان، هيرقليط، إذ قال "بانتا ريي" أي "كل شئ في حركة دائمة"، شعار اتخذه حافظ لنفسه على مدى خلقه الفني.

لم تكن الصالة التي اقتناها، ولا المحترف الفني الذي اقتناه أيضاً وهو في الريف، خارج المدينة، على بعد نصف ساعة من الصالة، ليجعلا من حافظ فناناً من الحضر. فبدل أن يرتبط بالصالة والمحترف، بقي فنّاناً "بدويا" من الرحّل، في سعي دائم، ليس وراء الماء والكلأ، بل وراء طيف من المنّ، قد ينبت في صحراء الحياة ليملأ جوعه النفسي :

ولكن عندئذ وعندئذ فقط، سيلتقي حافظ ب برتشنغر. عندما يصل إلى أرض الأم سيكتشف في داخله قيم الأب ويظهر له وجه من وجوهه كان يظن أنه لا يجهله.

انطلق حافظ من لبنان باتجاه الغرب وهو في صباح عمره. وما أجمل لبنان ذلك الحين صباحاً، عندما تنظر إليه من بحمدون. هضاب مغطاة بغابات الصنوبر، تبتسم منازل دساكرها، بسطوحها القرميدية الحمراء، للشمس المشرقة، وتهبط نحو الغرب إلى البحر لتغسل أقدامها بمياهه اللازوردية النقية الدافئة. مياه لا تدعو للاغتسال فقط بل إلى الرحيل والاغتراب لاكتشاف ما يختبئ وراء الأفق. هذا ما حمله الفنيقيّون في أمتعتهم بديلاً للهدية الكبرى التي كانوا قد حملوها للعالم. بإعطائهم الأبجدية خلقوا أول ثورة فكرية ديمقراطية، عالمية، فأصبح العلم في متناول الجميع. وكمكافئة لذلك رجعوا وفي دمهم جرثومة يورثونها لأولادهم، جرثومة الانفتاح على العالم.

يرجع حافظ إلى لبنان في مساء حياته، والشمس حانت إلى المغيب تسنح له أن ينظر من بحمدون شرقاً، ما كانت تمنعه أن ينظر إليه في الصباح. عند المساء، الهضاب والقمم الجرداء تظهر كثبان رمل زهرية يتمنى الناظر أن يلامسها. ألوان زهرية وأشكال ناعمة ما زالت على طبيعتها، تعبير عن شرق يفتن ويسحر بالقيم التي اكتشفها وأرادها سرمدية بقدر ما يصدم ويثير الانفعال بجموده وتحجّره وصموده أمام أمواج التجديد والتحديث والابتكار.

فقد تكون العودة الصدمة الشافية التي تسنح لحافظ أن يتصالح مع برتشنغر. فليس هنا من حافظ وهناك من برتشنغر، قطبين في تنازع متوتّر، بل هو حافظ برتشنغر، هوية جديدة تحمل الشرق في عقلها والغرب في قلبها، هوية ترفض التقوقع والتبوطن. وإذا كان لا بد من الانتماء، فحافظ هوية تنتمي إلى بشرية جديدة، من زرع جديد، بدأت تظهر بواكيره للعيان بينما بذوره كانت قد دفنت في أرض جديدة منذ ألفي سنة.

عندما يكتشف حافظ نفسه، سيخرّ ساجداً أمام نفسه. ولو عرفناه حقاً، فبدل التحديق في لوحاته لطأطئنا الرؤوس منحنية أمامه. معجزة دلالة : ثلاثون سنة من صداقة تربطني به وتجعل مني الحبل الوحيد في الغرب الذي ربطه على مدار هذه السنين بلبنان، ثلاثون سنة لم أحتج خلالها أن أسأله عن انتمائه الديني.

الشمس، وكأني به يفتش عن المصدر الأول لكل شئ وهو يفتش عن مصدره الشخصي. ثم بتطوافه على الحدود السويسرية بحثاً عن الحدود التي تفصل بين هويته وهوية الغير.

وجد حافظ الحدود بين البلدان، كما وجدها بين البشر، شكلية وهميّة مصطلحة، فما من هوية إلاّ ومتشعّبة ومتشابكة مع الهويّات الأخرى، في تاريخها وقيمها ومتطلّعاتها.أما المصدر ف ،

أم الكلّ أرض تنبت الخلد كما تنبت الأشبالا

ليس لنا فضل لما نقوم به. نحن تعبير من تعابير الطبيعة المتعددة. أعمالنا الفنية وحدها تستطيع أن تؤمّن لنا السلام الداخلي وتعطيه المناعة الكافية لمواجهة المآسي التي تحل بنا من جماعات وأفراد وأشدها ما يوقعه الإنسان بالإنسان من تشريد وقتل وتدمير. وما يدمي قلب الفنان ويجعل نفسه تثور الأكثر هو عندما يرى أن الأديان هي المسؤولة الكبرى عن المآسي الدموية. من هنا جاءت لوحاته مستقاة من الواقع المأساوي للبشرية. فمن يتأمل في أعماله الأخيرة لا يحتاج لمن يشرحها له. هي تعبير عما يحصل في الشرق الأوسط، وصرخة في وجه بوش وشارون.

وأحياناً يتساءل الفنان إذا ما كان لا بدّ من كل هذه الحرائق لينهض شرقنا من سباته الأعمق ويرجع إلى وعيه من غيبوبة قاتلة، كما تحتاج بعض النوايا في الطبيعة إلى حرائق حرجيّة تخرجها من سجنها لترى الحياة.

رغم هذا كله ورغم انتمائه إلى الكون بأسره، وانفتاحه الكامل على البشر أجمع ومحبته للناس أشمل وخصوصاً البسطاء منهم، ظلّ حافظ يحن إلى مسقط رأسه وأرض أمه.

بلادي من القطب إلى القطب مروراً بك لبنان
حنيني إليك دوماً مهما أثقلتني الأوهان

من هنا الرحلة الأخيرة والنهائية إلى لبنان. فينما متحف مقاطعة نيوشاتيل للفنون والتاريخ يعرض مجملاً لأعمال حافظ الفنية، وهي المرة الأولى من نوعها، يمتطي فناننا متن دراجة هوائية في اتجاه لبنان، وفي عروقه سبعون ربيعاً وفي عضلاته سبعون صيفاً لمجابهة أطول رحلة قام بها في حياته 7000 كلم. وكأنه هكذا قد أنهى رسالته في الغرب أويئس من البحث عن هويته فيه وعاد يسير حثيثاً باتجاه أرض أمه، ليرى بحمدون، مسقط رأسه، قبل أن تدهمه المنون. عندئذ وعندئذ فقط يمكنه أن يقول : "لقد تم كل شئ" .

يعود حافظ إلى لبنان في مساء عمره، والشمس تميل ولكنها ما زالت بعيدة عن الأفول، هذا ما نتمناه له. لذا نأمل أن يكون لقاءه بذاته الأصيلة ليس النهاية، بل فجراً جديداً يفجّر ببذوغه قيماً وأعمالاً جديدة. وبدلاً من "قد تمّ كل شئ" يكون شعاره : "انهض، فهذا نهار جديد"!

وهكذا يكون المدفن الذي ابتناه لنفسه في المغرب، (وهو جغرافياً البلد الشرقي الأكثر غرباً)، رمزا، ليس لخيبة أمل من وطن أم، قد لا يجد فيه ما تصبو إليه نفسه، بل رمزاً لهوية جديدة تبوتق الشرق والغرب في جوهر واحد.